من أركان الحوار في الإسلام

د.محمد سيد طنطاوي
شيخ الجامع الأزهر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن من الأساليب الحكيمة والبليغة التي استعملها القرآن الكريم، في إقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وعلى صدق الرسل الكرام، وعلى رأسهم خاتمهم سيدنا وشفيعنا محمد ﷺ، وعلى أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده ديناً.

من أبرز هذه الأدلة، ومن أبلغ هذه الأساليب؛ أسلوب الحوار والمناقشة والمراجعة من أجل الوصول إلى الحق، عن اقتناع عقلي، وارتياح نفسي، واطمئنان وجداني، يجعل صاحبه يعيش حياته وهو ثابت على ما آمن به ثباتاً لا ينازعه ريب، ولا يخالطه شك، ولا يحوم حوله وهم.

وكلمة " الحوار " من الكلمات التي يرتاح لها السمع، لأنها كلمة من معانيها اللغوية المراجعة ، والمناصحة ، والمصاحبة ، والمعاونة، والمؤانسة.. وهي كلمة يراد بها : حديث يجري بين شخصين أو أكثر من أجل الوصول إلى الحق والخير، والتعمير لا التخريب، والإصلاح لا الإفساد، والاعتصام لا التفريق، والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

يقال تحاور القوم : إذا تراجعوا الكلام فيما بينهم.

ومن قوله سبحانه : ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾(الكهف:٣٨).

وكان هذا رداً من ذلك الرجل الصالح على صاحبه الذي قال له بتطاول وغرور : ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ (الكهف : ٣٧ ، ٣٨).

والحواري : كلمة تطلق على الناصر والصاحب الذي يخلص القول والنصح والمحبة لصاحبه.

والحواريون : هم الأتباع المخلصون الذين كانوا يحاورون عيسى ـ عليه السلام ـ ويلتمسون منه النصيحة والتوجيه.

وعندما قال عيسى ـ عليه السلام ـ منادياً قومه : من أنصاري إلى الله؟

قال الحواريون ـ كما قص القرآن عنهم ـ : ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران : ٥٢ ، ٥٣).

والخلاصة أن كلمة الحوار من الكلمات الحسنة المقبولة التي يرتاح لها العقلاء، لأنها في معظم أحوالها يقصد بها المناصحة، والمجاوبة، والمناقشة، والوصول إلى الحق والإصلاح.

بخلاف كلمة الجدل والمجادلة والجدال، فإنها في معظم أحوالها ـ كما يقول علماء فن المناظرة ـ يقصد بها : إلزام الخصم ، والتغلب عليه، دون اهتمام بإظهار ما هو حق وصواب.

وبخلاف كلمة " المكابرة " فإن المقصود بها مطلق العناء واللدد، والتباهي والتفاخر، والانقياد للهوى رغبة في إثبات الوجود، الذي لا يغني من الحق شيئاً .

وإن الذي يتدبر القرآن الكريم ، يراه قد قص علينا ألواناً من المحاورات، التي فيها ما فيها من الحكم والهدايات ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قص علينا ألواناً من المحاورات التي دارت بين الرسل وأقوامهم وألواناً أخرى من المحاورات حول اليوم الآخر، أو حول القرآن الكريم ، وألواناً من الحوار مع أهل الكتاب ، أو المنافقين، أو مع غيرهم.

ولعلي لا أكون مبالغاً إذا قلت : إن المئات من آيات القرآن الكريم ، زاخرةٌ بالحوار، الذي يقذف فيه القرآن بحقه على باطل أعدائه، فيدمغه فإذا هو زاهق.

وللحوار في شريعة الإسلام أركان يجب أن يقوم عليها ، وآداب يجب أن تلتزم ، وأسس يجب أن تتبع ، ومباديء لا يجوز الخروج عليها.. ومن هذه الأركان وتلك المباديء:

أولاً: أن يكون الحوار قائماً على الصدق، بعيداً عن الكذب والسفسطة والأوهام، ولقد ساق القرآن الكريم كثيراً من الحوار الذي دار بين الرسل الكرام وبين أقوامهم .. وعندما نتدبر هذا الحوار نراه قائماً من جانب الرسل على الصدق.

ولتسمع إلى جانب من الحوار الطويل الذي تم بين موسى ـ عليه السلام ، وبين فرعون ، والذي ورد في سور شتى.

لقد أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون أن يذهبا إلى فرعون؛ ليبلغاه دعوة الحق.

ووصل موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ إلى فرعون وبدأ الحوار بينهما وبينه بقول فرعون لهما ـ كما جاء في سورة طه ـ ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾(طه:٤٩).

وهنا أجابه موسى ـ عليه السلام ـ بالرد الذي يخرسه فقال له : ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه:٥٠).

أي : قال له : يا فرعون ، ربنا وربك هو الله الذي منح كل مخلوق من مخلوقاته الصورة التي تلائمه، والهيئة التي تتحقق معها منفعته ومصلحته، ثم هداه إلى وظيفته التي خلقه من أجلها، وأمده بالملكات والوسائل التي تحقق هذه الوظيفة .

وكان هذا الرد من موسى كافياً لإقناع فرعون بأن المستحق للعبادة هو الله ـ تعالى ـ إلا أنه هرب من الحوار في موضوع وحدانية الله وإخلاص العبادة له، إلى موضوع آخر فقال لموسى ـ كما قص القرآن عنه ـ ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾(طه:٥١).

أي : أخبرني يا موسى عن حال القرون الأولى كقوم نوح وعاد وثمود.

فرد عليه موسى برد مفصل يبطل مكره، ويزهق طغيانه فقال : ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى﴾ (طه : ٥٢-٥٤).

وانتهى هذا الحوار الطويل بانتصار موسى ـ عليه السلام ـ بإيمان السحرة الذين جمعهم فرعون لمبارزة موسى ـ عليه السلام ـ...

وقالوا لفرعون بكل شجاعة وثقة : ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه : ٧٢، ٧٣).

والذي يهمنا تأكيده : أن حوار موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون ، كان

قائماً على الصدق الذي لا يحوم حوله كذب.

والحوار متى كان قائماً على الصدق ، كانت نتيجته النصر والخير، وتلك سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ثانياً:كذلك من أسس الحوار ومن آدابه : التزام الموضوعية، ونقصد بذلك عدم الخروج عن موضوع الحوار إلى موضوعات أخرى فرعية خارجة عن موضوع الحوار.

وآفة بعض الناس أنهم إذا حاوروا غيرهم في موضوع ، تعمدوا أن يسلكوا ما يسمى في هذه الأيام بخلط الأوراق، بحيث تتوه الحقيقة في متاهات هذه الفروع الخارجة عن موضوع الحوار.

والذي يتدبر القرآن الكريم يراه يعلم أتباعه ويأمرهم بالتزام الموضوعية في حوارهم مع غيرهم.

وهذا ما نراه واضحاً جلياً في حوار الأنبياء مع أقوامهم ، لقد كانت إجابات الأنبياء على شبهات أقوامهم منتزعة ومأخوذة من أقوالهم.

وعلى سبيل المثال : هذا نوح ـ عليه السلام ـ يقول لقومه : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٥٩).

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(الأعراف:٦٠).

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٦٢)﴾(الأعراف).

وهذا هود ـ عليه السلام ـ يقول لقومه : ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٦٥).

فيردون عليه بقولهم ـ كما قص علينا القرآن : ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(الأعراف:٦٦).

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾(الأعراف:٦٧).

وكثيراً ما نرى القرآن الكريم يأمر النبي ﷺ أن يرد على المخالفين بالجواب الذي هو من واقع كلامهم.

ومن أمثلة ذلك قوله سبحانه :

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ (الأعراف).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)﴾ (البقرة).

وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ (سبأ: ٣).

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ (التوبة: ٨١).

والخلاصة أن الذي يتدبر القرآن الكريم يرى أن إجابات الرسل الكرام خلال حوارهم مع أقوامهم منتزعة من أقوال هؤلاء الأقوام ، ويرى كذلك أن الله ـ عز وجل ـ قد لقن نبيه ﷺ الإجابة على شبهات أعدائه من واقع دعاويهم.

وهذا هو الحوار السديد الذي يقوم على التزام الموضوعية ، وعدم الخروج عن الموضوع الذي هو محل الحوار.

وليت جميع الذين يحاورون غيرهم في موضوع محدد، يسلكون هذا الطريق الحكيم طريق التزام الموضوعية ، التي هي من خير الطرق للوصول إلى الحقيقة.

ثالثاً: ومن أركان الحوار وآدابه : التسامح بالبراهين الساطعة ، وبالأدلة الناصعة وبالمنطق السليم الذي يلقم المكابر أو المعاند حجراً ، وذلك لأن التسلح بالأدلة الواضحة وبالحجج القوية، يؤدي إلى النتيجة الحاسمة السريعة المقنعة لمن يستمع إليها.

ومن أمثلة ذلك : الحوار الذي قصه القرآن علينا ، والذي حدث بين سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبين أحد الزعماء الجاحدين المغرورين.

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

فهذه الآية الكريمة تخبرنا بأن حواراً حدث بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ

وبين حاكم جاحد مغرور، أخذ يناقش إبراهيم ـ عليه السلام ـ في مسائل تتعلق بوجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار.

وكان من رد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن قال له : ربي وربك هو الله الواحد القهار ، الذي يحيى الخلائق فتحيا، ويسلبها الحياة فتموت، فما كان من ذلك الجبار إلا أن قال: أنا كذلك أحيى وأميت ، أي : أقتل من أريد قتله ، واستبقي من أريد استبقاءه ، فقال له إبراهيم بسرعة وحسم : إن الله يجعل الشمس تشرق من جهة المشرق ، وتغرب من جهة المغرب ، فهل في إمكانك أن تفعل ذلك؟ فبهت وتحير وانقطعت حجته في الحال . وهكذا ينتهي الحوار بالنتيجة الحاسمة السريعة ببركة الأدلة التي تقنع كل ذي عقل سليم.

رابعاً: ومن الطرق التي يجب أن تتبع في الحوار ، أن يقصد كل طرف من أطرافه ، إظهار الحق والصواب في الموضوع الذي هو محل الحوار ، حتى ولو كان هذا الإظهار على يد الطرف المخالف.

وهذا ما نراه واضحاً في حوار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في كثير من القضايا المهمة التي يترتب على نتائجها خير للأمة.

ومن أمثلة ذلك : الحوار الذي دار بين أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ في شأن قتال المرتدين الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة، وقالوا: نصلي ولا نزكي.

فقد رجع عمر إلى رأي أبي بكر في قتالهم بعد أن اقتنع برأي أبي بكر.

وكما رجع عمر في مسألة قتال المرتدين إلى رأي أبي بكر.

رأينا أبا بكر يرجع إلى رأي عمر في مسألة جمع القرآن ، بعد وفاة النبي ﷺ.

ومن أمثلة ذلك ـ أيضاً أن رجلاً سأل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسألة فأجابه . فقال رجل لعلي : يا أمير المؤمنين : الجواب هو كذا وكذا ، فقال علي: أصبت أنت، وأخطأت أنا ، وفوق كل ذي علم عليم.

ومن أقوال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ : " ما حاورت أحداً قط فأحببت أن يخطيء ، وما كلمت أحداً في قضية إلا وأحببت أن يظهر الله الحق على لساني أو على لسانه ، وددت لو انتفع الناس بعلمي ولم ينسب إلي منه شيء " .

وقال بعض الحكماء : " من آداب الحوار : أن يكون المتحاورون في طلب الحق ، كناشد الضالة ، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد غيره ، ويرى أن هذا الغير رفيقه لا خصمه ، ويشكره إذا عرّفه الخطأ ، وأظهر له الحق " .

خامساً: كذلك من مستلزمات الحوار السليم: التحلي بخلق التواضع، وتجنب الغرور، والتزام الأسلوب المهذب الخالي من كل ما لا يليق ، ولقد ساق القرآن الكريم أمثلة متنوعة لنماذج من الحوار القائم على التواضع ، وإعطاء كل ذي حق حقه.

ومن هذه الأمثلة ما ساقه القرآن الكريم على لسان سليمان ـ عليه السلام ـ الذي جمع الله تعالى له بين النبوة والملك، والذي أعطاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، والذي علمه الله منطق الطير.

لقد تفقد سليمان ـ عليه السلام ـ جنده ، فلم ير الهدهد من بينهم ، فتوعده بالعقاب ، وأتى الهدهد بعد ذلك ، فقال لسليمان ـ عليه السلام ـ بكل شجاعة وثقة : ﴿حَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾(النمل:٢٢).

ويقبل سليمان ـ عليه السلام ـ بكل تواضع ، حجة الهدهد، ويكلفه

بحمل رسالة إلى ملكة " سبأ " ويوفق في مهمته، وتنتهي القصة بعد حوار متعدد الجوانب ، تقول فيه تلك الملكة: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(النمل:٤٤)..

وهكذا نرى أن الجندي الصغير في الأمة التي يظللها العدل والأمان ، لا يمنعه صغره أن يرد على الحاكم الكبير ، وأن يدافع عن نفسه بكل حرية وشجاعة.

ونرى أن الحاكم الكبير يقابل رد الهدهد، وهو الجندي الصغير، بكل تواضع، ويفسح له المجال في أن يدلي بكل حججه، وأن يضعها موضع التحقيق والاختبار ، وهكذا الأمم العاقلة الرشيدة ، لا يهان فيها الصغير ، ولا يظلم فيها الكبير ، لأن الحوار بين أفرادها قائم على التواضع ، وإعطاء كل ذي حق حقه؛ دون تكبر أو غرور.

هذه هي بعض الأركان والأسس والآداب التي يجب أن تتوفر في الحوار بين الأفراد والجماعات.

ومتى توفرت ومعها النية الطيبة، والعزيمة الصادقة ، كانت نتيجة ذلك أفضل الثمار وأيسر طريق للوصول إلى الحقيقة التي تقرها الشرائع السماوية، والعقول الإنسانية السليمة

والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ،،،